الطبيعة والحضارة

بقلم عزمي مورلي

اذا رفضنا ان نقبل بفكرة التطور الصاعد نحو ما هو احق واجمل واعدل ، اي اذا رفضنا بذلك معنى الغائية فان المدنية من حيث هي شيء قائم فى ذاته تتحول الى قوة وحشية ينبغي القضاء عليها والعودة الى المطاليب المباشرة لحياة بسيط مجدية وعفوية ، فهل سبق ان بحث حول هذه النزعة ؟ لقد بحثت مرات عديدة خلال التاريخ منذ القديم ولكن فى الحقيقة كان البحث يجري بشكل متردد او كمخطط مستمد من الاحلام الرومانسية ، فلقد كان على كل باحث ان يشعر ، وذلك فى مرحلة فاصلة من تطوره الشخصي، بعدم التناسب وبالطابع الهستيري فى حدود مختلفة لكل حضارة . وهكذا فلقاء اضطراب مجرى الحوادث والاختلافات التي يبدو ان لا وفاق البتة بينها ، فان الحضارة الراهنة التي هي حضارة غربية خالصة تجمع كلا من اوربا وامريكا خاصة ، ولكن لها تأثيرها العنيف الذي امتد الى المعموره كلها ، هذه الحضارة يراها بعض المفكرين كأنها الاشارة الواضحة للهستيريا الجمعية المطلقة بحيث انها صائرة حتما ، مارة خلال مراحل متتابعة من الاضمحلال ، الى كارثة كلية ستكون فى جملتها نهاية حضارة او لنقل انها ربما كانت نهاية الانسانية جمعاء .

ان ما يبرر بالنسبة لهؤلاء المفكرين هذا اليقين ، المبالغ فيه احيانا ، هو ان الحضارة ، التي هي موضوع البحث ، بايجادها وسائل للتهديم مريبة الى اقصى حد ، وبانقسامها على ذاتها الى كتل متعاكسة ، يستحيل اتفاقها ، ستعمل عاجلا او آجلا على تفجير الطاقات الهائلة التي لا يمكن كبت عناصرها . اي انها سوف تستعمل اسلحتها ضد نفسها ، وتقضي هكذا على وجودها .

فنحن ازاء خصومة صميمية وانفصام عميق فى صلب الحضارة . بهذه التعابير اعتقد انه يمكن ترجمة اضطراب معاصرينا الذين فقدوا جأشهم تلقاء مشكلة هي فى الواقع جد مقلقة . ولكن تلك هي ملاحظة غير كافية ، لا تملك اكثر من قيمة موضوعية لمجرد ملاحظة . « فان كنت املك سلاحا فهو للقتل . »

واذا كان الموضوع حاضرا على هذا الشكل ، فان الانتباه البطيء المتأخر له ، لا يمكن ان يربح فى الحقيقة الا من حيث انه راهن واقعي . ولكن المشكلة اكثر تعقيدا مما يتراءى ، وتستحق ، ولا ريب ، التعمق فيها اكثر . ولست لادعي انني ساجمل فى نظرة خاطفة مجموع المعطيات التي ينتج عنها بالضرورة بناء مذهب شامل متماسك . فتلك هي مهمة تتجاوز فى الواقع طاقتي . فانشاء مذهب شامل على هذه الصورة ربما يتطلب الصبر والتعاون الواسع لجملة من العلماء الاختصاصيين ، لكي يمكن مقارنة الفروع المختلفة للفعاليات الانسانية واقتراح المعطيات الاساسية ، وفحص النتائج التاريخية والعلمية بواسطتها، وابراز جميع القيم الانسانية ، وبذلك اقامة القواعد النهائية لعلم كلي ، يكون موضوعه ابانة الطريق والهدف للانسانية ، التي ما زالت حتى اليوم تائهة عنه . وبدون ذلك فان كل نزعة جزئية ، وكل مذهب لا يهتم بالقوانين الاساسية لهذه النزعة الانسانية ، سيغرق بالوهم ، ومن حيث هو انتاج الخيال او لبعض الجدل الاعتباطي ، فلا يفسر بالتالي الا الصعوبات الناتجة عن العمليات الثانوية ، التي ليست هي الا افتراضات اختلقتها الحضارة ، فانه سيوجه عاجلا او آجلا الى فصل رابطة التفاهم التي تصله بالطبيعة والى العودة هكذا الى حالته الاولية الاصلية ، اي الى الطبيعة ذاتها .

وعلى ذلك ، فان الاضطرابات الكبرى التي تزعزع عصرنا والهزات المخيفة التي تهدد الجماعات ، كما تهدد الفرد ، تنبيء بوضوح عن الصراع القائم بين الطبيعة والمدنية . وهو ليس باعتقادنا سوى عبارة عن تكثيف الطاقات الحيوية المستعارة والمجمعة . وبما اننا نشيد بناءنا من العناصر المقتبسة من الطبيعة فالى الطبيعة ذاتها سنعيد لا محالة العناصر التي تخصها لذاتها .

ولكن ها نحن نجد انفسنا فى صميم المشكلة التي تشغلنا. فما هي الحضارة ؟ « ان الحضارة هي مجموع الفعاليات المكتشفة والنتائج المحصلة والموجهة لغاية السيطرة على الطبيعة » . فهي بحسب مظهرها الخارجي الموضوعي لا علاقة لها بالفعل ، وانها عبارة عن تقنينه ومحصول تجريبي ، انجز وتكامل بفعل التعميمات . ولكن فى الحقيقة فان كل الرفاه الذي ندعيه ، والمساعدات التي قدمها الينا نمو الصناعات الحديثة ، ان هو الا امر متواضع اذا قورن بمختلف انواع الشقاء اللامتناهية التي لا تكف عن معاقبتنا . اذ ان الانسان ، بحسب قانون نفسي صارم ، يتحد ، بشكل لا مناص منه بوظيفته ووسطه وعصره وتقاليده وبفكرة ما او مفهوم ، ودين ، ومكان وزمان. ويتحد اخيرا باله يخلقه حسب صورته . وهكذا فان الذات التي تحيا بفضل عملية فكل توحيد يفترض ذوبان الذات فى الموضوع.

بحث الشهر الفلسفي

مضاعفة داخلية وخارجية ، تثبت بواسطة الموضوع الذي تتمثله وتسقطه في آن واحد . عندما اتحد مع موضوع فانني اصير الموضوع ، والموضوع يصير اياي . وهكذا على المستوى الاجتماعي كما هو في المستوى الفردي ، فان كل عضو ، وكل موضوع مبدع نتيجة الضرورات الواقعية، يفترض وظيفة متكافئة ، وتلاؤما ، ويفترض اخيرا اتحادا كاملا بهذه الوظيفة. وكذلك فيمجموعة الوظائف الثانوية(١) التي لا تحصى ، اي في كل ما لا ينهض مباشرة من الطبيعة ، فالانسان المتحضر طبعا ، والمفكرون خاصة بحسب درجة ذكائهم وقدرتهم على التلاؤم ، الا ندرة من الشواذ ، ينتهون الى الاتحاد ، بشكل لا شعوري ، مع هذا المستوى الثانوي الذي ندعوه اجمالا الحضارة او التاريخ . وسواء اكانوا ملتزمين ام غير ملتزمين ، فانهم ينجزون ويتقبلون في آن واحد فعلا هو لهم ، وفي نفس الوقت ، هو فعل تابع للجماعة التي تفرضه عليهم . وها هم يستولى عليهم اختلاط لا يرحم، ويجعلهم فريسة لفعاليات الآلة الاجتماعية التي يتزايد تعقدها دائما ، بحيث يصبحون فيها من جملة عجلاتها التي لا تحصى ولا تقاوم .

وحينئذ يكفون عن كونهم هم انفسهم تحت تأثير الموضوع . فليس لهم انا خاصة . ويخضعون ويتلاشون تحت شخصية الوظيفة التي يمثلونها . وقد يعترض علينا بالقول انه امر طبيعي ان يتحد الفرد مع بعض الموضوعات الموجودة بالضرورة في العالم الخارجي ، والا فان الانسان يتحول الى تجريد فارغ من كل محتوى ، وينتهي ، كما في بعض الحالات المرضية النفسية ، الى ان يفقد حتى معنى الانا ، التي من وظائفها وظيفة تقوم حتما في العلاقة التي ينشئها الانسان مع العالم الخارجي ، او بالاحرى مع الموضوع الذي يتمثله ويجعله من ذاتيته .

ولكنني ، كنت اشرت مرارا ، حسب وجهة النظر التي تشغلنا ، الى ان هذا الامر ، بالنسبة للحضارة ، ان هو الا اتحاد مع الوظيفة الثانوية التي ابتكرتها امكانات المستوى الاجتماعي الاعتباطية الذي نعيش فيه . فما ينبغي انجازه عفويا ، بالتطابق مع قوانين الطبيعة ، يتحقق هنا بالتبادل والتواطؤ . وعلى ذلك فان الانسان ، وقد اصبح مركزا للتناقض ، يدور حول مشاكل يحاول عبثا حلها . وهذه الحالة تخلق في نفسه الشعور بالعبثية فيسعى الى ان يشيد عليه فلسفة في الوجود . فيتحدث عن العدمية والقلق والجنسية . وبعد ان فقد تذوق الحياة تحت تأثير الكبت ، فانه سيناضل ضد ضيقه وشدته باصطناع الرصانة والنباهة . ولكن تفكيره وهمي ، وانتاجه فريسة التعارض ، وما هو بعد هذا الا مخلوق مسكين غريب ، وتلميذ ساحر سخيف ، يحارب يائسا في محيط من الصعوبات تتضخم دون انقطاع ، صعوبات كان هو قد صنعها ودون ان يدري . ولقد يصل احيانا بشيء من التعليلات المرضية الى اشادة نظم فكرية متماسكة ، واقامة مذاهب قابلة ، بفضل شمولها ، لضم عدد لامتناه من الاوهام والاخطاء ، والترهات واحتواء الضلالات ، نتيجة اختلال التوازن ، الذي هو ، لا مراء ، الطابع المميز لكل تواطؤ فكري مصطنع . فالحضارة هي التواطؤ ، وعلامة هذا التواطؤ ، كما نعلم ، هي الهستيريا الفردية والجمعية .

وقليلا ما نستطيع ان نجرد فكرنا من عاداته التقليدية ، اي اذا توصلنا عن طريق عملية تجريدية ، الى تعرية الافراد من خصائصهم وتصانيفهم المتفق عليها ، والتي هي كما رأينا تحديدات اعتباطية ، تمثل في أحسن اشكالها ، مجرد علائق صورية ، وباعتبار انها وظائف خاصة ، فانها تجعل للعلائم المميزة للافراد العائشين في المجتمع طابعا ذاتيا ، وهذا ينطبق سواء على المشرعين والاطباء والمحامين والمهندسين الخ ... اقول فاذا تحررنا من هذا التصور التصنيفي الاسمي ، فاننا نرى انفسنا داخل بحران هائل من العلاقات المختلفة المتداخلة في اسبابها ونتائجها ، علاقات من الافعال والقابليات ، من البراءة والاجرام ، من الحاجات والاعتداءات ، وانواع الكبت ، والحب والكره ، والحرب والسلام . وها نحن اخيرا تلقاء تعليل حركي للعناصر المتفرقة اشد الافتراق ، التي تؤلف في جملتها اطار الحضارة والاقتصاد النفسي والحيوي للنوع .

وما ان نتعمق هذه المشكلة ، حتى تثير انتباهنا مجموعة من الوقائع البالغة الاهمية . وهكذا نصل ، بدراستنا للاشكال العالية في الكبت التي يعانيها الفرد المتمدين ، الى ان نلاحظ ، بفضل مبدأ الاتحاد مع الموضوع الذي درسناه بصورة مجملة ، وبفضل آلية الكبت كعامل توازن مع طبيعة التواطؤ ، نصل الى ملاحظة ان المختصين ، او بالاحرى ، التجسيدات النموذجية للوظائف الثانوية ، المتجلية مثلا في الاطباء والمحامين والمهندسين ... وحتى الفلاسفة ، بحسب درجة اتحادهم الجزئي او الكلي ، هذه التجسيدات تقدم الصورة الكاملة للتناقضات والتعارضات التي تميز عصر هؤلاء .

واليوم يتحقق الكثيرون ان هذا الصخب الجهنمي للآلات ، وهذا السباق العاجل ، الذي ما هو في الحقيقة الا فرار ، وهذه السرعة المتفانية ، ان هي الا الاسباب المباشرة لعدم التوازن ، والقلق ، والجنون النسبي الذي نحيا فيه جميعا . غير ان الثورة الاجتماعية قد حققت ، على ما يبدو ، ثمارها ، وهو ان الجهل والتعصب قد ازيلا ، والدين الذي كان يبدو انه مخدر الشعب ، قد اضمحل ، والجحيم الذي كان في المستوى الاعلى المرجو أصبح منذ الآن هنا ، وهو ما كنا انشأناه نحن بيدنا ، وقد اصبح جزءا من نظام وجودنا. فقديما كان الجحيم معوضا عن القلق ، ولعله شيء لاصق بطبيعة الانسان ، وقد اراد الانسان ، بفضل نوع من التواطؤ ، ان يسقطه خارجا عنه ، الى ما وراء الموت . وبهذا الشكل يؤجل عقاب الخطيئة ، التي كان يمكنه ان يخفف منها في الماضي بواسطة الاضاحي

(١) اعني بالوظائف الثانوية ما ليس هو ضروريا مباشرة لحفظ النوع.

والطقوس الخاصة . اما اليوم ، فان جهنم قد اصبحت في **هذا** الزمان والمكان حيث نحيا نحن ، نعاني الالم الرابض على صدر كل لحظة ، وجها لوجه تلقاء الواقع القاسي الذي يسحقنا ويهلكنا ، دونما امل او انعتاق . « فليس في الامكان احسن مما كان » . والمنطق الخالص يقول :تعذب ومت. وامام هذا المشهد من البؤس والخجل والخزي والذل ، ومن الثورة والخيبة ، نرى بعض النبلاء من ذوي الفطنة والشجاعة يخفضون الصوت ، وينغلقون على انفسهم ، ويحاولون عبثا ان يجدوا الايمان بالعودة الى ملجأ اعلى . ولكن للاسف فانهم خابوا وضلوا !

وهكذا ، فالعالم الانساني مضطرب حتى اسسه العميقة ، وفكر الملايين من الناس يتحلل او يتحول الى فكر آلي. وكل فرد يمضي مسرعا كيما يقبع اخيرا في قرارة الهوة . وفي هذا العالم اللامبالي ، المليء بالعدم والمشقة الكبرى ، يجد بعض البحاثين والكتاب جميع عناصر الفوضى والتحلل، فيحاولون انشاء مذهب انساني او فلسفة في الوجود ، (وباستعمالهم لطريقة في الجدل مركبة من جميع القطع المستعارة) لا يلبثون ان يعتبروا ان كل شيء عبث . ولكن ليس هذا موقفا جديرا بمفكر حقيقي ، وان هو الا صوت (الانسان ـ الحيوان) الثائر ضد وضعه الخاص وهو (الانسان ـ المتمدين) وان ذاك لهو الدفاع الاصم للغريزة ضد وحشية النزعة العلمية والنزعة الآلية ، كما هو ضد النزعة التوفيقية المقابلة . ونحن لا نشك ان الوجود في صميمه ، ان هو الا صراع الغرائز التي تفترض ، بسبب الوجود ذاته ، الالم الداخلي . ولكن هذا الالم صحيح ، مشروع وضروري . ومن العبث ان نقبل بموقف معاكس له ، وهو ينطوي على ثورة او خيبة ميتافيزيقية. اذ انني موجود ، ولكوني موجودا ، فلا يمكنني الا اوجد . وهكذا ، فانني باتحادي مع الصفات السلبية للاوجود ، التي لا تملك اي معنى ، انفي عن نفسي بارادتي ميزة كل اثبات جوهري ، الاثبات الذي هو مبدأ او مصدر كل حياة .

اذ ان الحياة ، باعتبارها مظهرا من الوعي ، لا يمكنها ان تكون الا اثباتا لذاتها ، اولا تكون شيئا على الاطلاق . فهؤلاء الذي بالغوا في تذوق واستساغة الوهم والعدم والوحشة التي تعم كل ميتافيزيقا، يعتمدون بذلك على بعض الافكار . فالعالم ، وهو في الحقيقة بسيط في جوهره ، ساذج وعفوي في غرائزه ، قد شوه واذل بفعل تحلل انصاف الحكماء . وهذا يسمح لي ان اضيف ، وليس ذلك عن غير جدارة ، بل باعتباري مواطنا في هذا العالم وانسانا بين الناس ، مما يمنحني الحق بان احكم على امثالي ، فأقول ان هناك قدرا كبيرا من عدم الجدارة الواضحة والانانية المضخمة المقنعة بشجاعة هلوع ، في موقف كثير من الكتاب والمفكرين العصريين ، فهؤلاء ، عشاق الافكار السوداء ، لتقبلهم ، بهذا ، نوازع العصر ، يبغون بأي ثمن كذلك ، ان يكونوا الاوائل في فن الالم وفي اثارة الالم . فلا يقبلون بأي ثمن كذلك ، ان يكونوا من القانعين الطيبين الكرماء ، خشية ان يوصموا بانهم من الاغبياء غير العصريين . حتى ان مجتمع النخبة يقبل ان يغامر مغامرة الضجر القتال حتى يبقى محافظا على رفعته في عين ذاته والآخرين .

ودونما حاجة الى الكلام هنا حول الم الوضعاء ، او كما يقال اليوم (شقاء الكتل) ، اقول ان العالم قد استذل اذن في اشد عناصره فعالية ، واكثرها عمقا ودلالة الا وهو المه . في الحقيقة فان الم الانسان المعاصر يتناسب معه قليلا وهو الم مرضي مؤذ ، يبالغ فيه غالبا ويساء توجيهه ، حتى فقد كل عنصر من الجدارة او التمييز والتسامح . فلا يمكن ان نملك اية عاطفة رأفة او تقدير اتجاه اي انسان ، تجرد المه عن الرفعة الحقيقية ، ودون ان يستوحي موقفه على الاقل من استسلام اعف شجاع تلقاء الحياة . فهذا هو وحده العظيم من يتقبل المه ، ويجعل منه الما نبيلا ، بالتأمل ، بالعمل والايمان ، وبشيء من الشجاعة العنيدة التي لا تتنافى مع البطولة والطيبة .

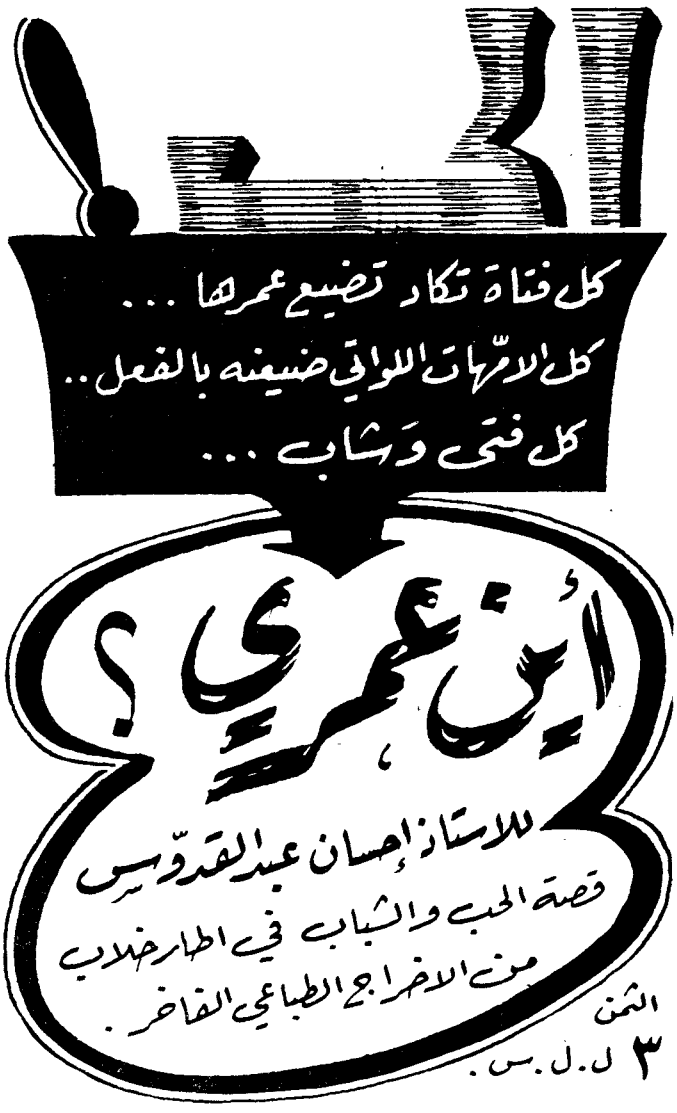

فالرحمة والعذوبة والطيبة ، ان هي اليوم الا قيم مشكوك فيها . وقد اسيء فهم (ارادة القوة) عند نيتشه، من قبل هؤلاء الذين لم يعرفوا كيف يتعاطفون مع الياس الوحشي الذي عاناه المبدد العظيم للاوهام : نيتشه .

بعد هذا الاستطراد القصير ، لنعد الى ما هو اهم فى موضوع دراستنا ، واسعى ، قبل انهاء ملاحظاتي المتعلقة بالحضارة ، الى ان افحص بشكل اعمق ، موقف اوربا من الصراع الحالي ، الذي بقدر ما هو مهد للحضارة ، فانه خاص بها .

فماذا نرى ؟ علماء ، فنانين ، ادباء ، شعراء ، جميعهم يرفعون عقيرتهم ، ويتسابقون ، فى عبقرياتهم ، الى اظهار العناصر الكامنة فى اساس الانهيار . وقد وضعوا اصبعهم على الشر الدوري الذي يفترس ، بغمضة عين ، مدينة محتضرة . وجميعهم قد حللوا وفصلو ، وغرقوا فى الجزئيات ، وليس ثمة ، من عمل واحد تركيبي انشائي . ولا نكاد نسمع بعض اصوات مدوية هنا او هناك ، الا وهي مرتعدة مترددة ، بعد ان قامت بتحليل لامتناه ، ارجعت فيه كل شيء الى اللاشعور الابتدائي ، الذي ما هو الا شكل من العدم .

ان اوربا تعاني الهزيمة ، وممثليها الروحيين قد قرعوا ناقوس الخطر . ومن جهة ثانية ، الم يشاركوا هم انفسهم، فى العمل التهديمي عن طريق ايمانهم بالنزعة العدمية ؟ ان اللاشعور الجمعي يفترس ضحاياه وان المحكمة الخفية لا تبريء منهم احدا مطلقا ، حكاما ومحكومين . فالحاكم يجسد الجريمة . والطبيب يكافح يائسا ، المرض الذي يحمله فى ذاته . والسياسي ، هذه الدمية التعسة الغافلة، ينوء تحت ثقل اتهامه لذاته اللاشعوري . ولا يستثنى منهم ، رؤساء العقائد والجمعيات المختلفة ، الصميمون . انهم يعلمون ، رغم كل شيء ، انهم لا يمتون الى الجماعة الانسانية باقل مما يمتون الى جماعاتهم ، وبهذا فهم يشعرون بوضوح فشلهم .

فالزعماء قد اعلنوا الخطر . ويجهدون فى تجاهل المعول الهدام ، او بالاحرى فى الفرار منه ، المعول الذي يحملونه فى ذاتهم ، والذي يقودهم ، لا محالة ، الى الاستقرار فى جوف الهوة ، هم ومدنيتهم المحتضرة التي يمثلونها . ويمكن ، بكل تأكيد التحدث عن تصفية النزاع والتحرر والوعي ، ولكننا نعلم كم هو الامر صعب ، لتوجيه الطاقات اللاشعورية المحررة خاصة فيما يتعلق بمشكلة جمعية على هذا الجانب العظيم من الاتساع والشمول .

ولقد اصبح من السهل ان نعلم لماذا قد رجع بعض الباحثين الى الدين كوسيلة للسلام ، او كنوع من السحر اللاهوتي الضروري لاعادة التوازن النفسي ، وذلك تلقاء افلاس النزعة العلمية والآلية ، وتجاه الذعر الذي يهدد بزوال كل شيء .

غير ان اله الغرب قد مات . الم يشرح ذلك نيتشه ؟ وفرويد وتلامذته الم يأخذوا على عاتقهم التشريح؟ وما زالت بعض العقول الجريئة المستنيرة تحاول ان تحصل على بعض البركات من الجثة المشرّحة . غير ان الزمان يثور ، والايمان يضطرب ، والمخلصين ان هم فى الحقيقة الا اشخاص غير مؤمنين ، والبخور لا يكاد يعلو فوق البلاد الدخاني الذي ينثره الانفجار الذري . وليس كل هذا الا بهرجة عقيمة تريد اخفاء حاجة التعالي الكاذب .

لقد خسرت اوربا المعركة ، وقد اصاب الهلع اعظم المتنبئين ، فى عالم بدون اله . ولا شيء غير التنبؤ عن زوال العالم « فليس فى الامكان ابدع مما كان » .

هل يمكننا ترى ، نحن شعوب الشرق والغرب ، بفضل جهود بطولية ، خارجية عن كل عقيدة او طقس من الطقوس الجامدة ، ان يخلق ثانية انسانية عالمية ، بدونها يكون الانسان بعد تصعيد طويل مجيد ، قد اضاع البوصلة الروحية ، مفرغا من كل جوهر انساني ، ذلك الارث المقدس النازل الينا من الملايين ، هذا الانسان يكاد ان يبتلعه السلم الحيواني ثانية ، الذي هو فيه يشكل اختلافا واضحا . فالانسان باختلافه عن الحيوان بالفكر والابداع ، يريد ان يتحول الى مبدع وان يرتفع الى مصاف (الآلهة) ، واليوم ، يتضح الامر كما لم يتضح من قبل ، فان الانسان لن يستطيع باي ثمن ان يفر من المفهوم الميتافيزيائي العالم ، اذ ان اعماقه الخلفية التي لا تسبر ، انما تتصل بالاله .

وارجو ان تعذروني ايها الاوربيون اذا انا خضت فى مشاكل هي خاصتكم بالدرجة الاولى . غير انكم بالرغم من كل شيء ، ان انتم الا اوربيون تحيون فى اوربا المذعورة، اي انكم بالضرورة محوطون بزوبعة من الوقائع التي تتجاوزكم . **واكثر ما يمكنكم هو اعلان الخطر ، ولكن ليس الشفاء منه .**

ان الابن الرهيب ، الذي هو اوربا ، اللحوح الخائب باطماحه واطماعه ، تغذى حتى الآن من احشاء امه العميقة اسيا ، بعد ان فجرت جميع مصادر قواها اللامحدودة ، تجد نفسها اليوم ، وقد خدعتها طيبتها ، مهضومة الافضال التي ينبغي ان تعود اليها بشكل طبيعي. غير ان الام الرهيبة تهدد ، وتعلن حقوقها . والابن العقوق يخرج من احضانها ، بعد ان سبب لها المزيد من الالم . وانها لتطالبه فى النهاية الحساب عن جميع ضلالاته .

ان الصين ، والهند ، واليابان ، وافريقيا والعرب ، وجميع الشعوب العربية من الشرق الادنى قد استيقظت. وان الام الجبارة للشعوب الباغية (اوربا) قد اخذت فى الصعود ، فمن سيوقفها ؟

لن اطيل البحث اكثر ، او بالاحرى لن اسعى الى معرفة

ما اذا كانت الازمات التي تخترم العالم تنبيء عن نهاية مدنية ، او انها اشارات عن بعض الانحرافات والاضطرابات الخطيرة . ولا يبدو ان ذلك سيكون على شكل انهيار يودي بالحضارة فجأة الى اعماق الهاوية . ان الحضارة بالاحرى تخضع الى قانون عملية بطيئة من عدم التوازن ، يصاب دوريا بانفجارات مفاجئة ، تترجم ظواهرها المميزة بالثورات والحروب .

فليس اذن باستطاعة الانسان ان يتنبأ او ان يقيم المجرى الصحيح للحوادث التاريخية لكي يحدد نقطة التحول الفاصلة فيه التي ستسجل نهاية او بداية حضارة ما . ولربما كانت هذه النهاية الموهومة ما هي الا صلة وصل او معبر ، يشتمل في نفس الوقت على تغير اساسي في القيم ، ينجزه انتقال الطاقات الناتجة عن المحتوى الفكري والاقتصادي لشعب من الشعوب او لحضارة من الحضارات .

ولنشر الى ان انتقال الطاقات الكتلية من الحضارات مرحلة الحرب منه في المرحلة المسماة بالسلم ، وهي الحرب المدركة في معناها الطبيعي المباشر ، التي ان هي في جوهرها الا حركة دورية لتجديد النمو الحيوي في عملية مزدوجة التأثير في الافناء والخلق التلقائيين . ان هذا الاستمرار الحركي يمثل في وحدته اللامتغيرة الثابتة ، الحياة ذاتها وان هذا الفعل لمستمر دائما ، وليس في قدرة البشر ولا « الآلهة » ايقاف جريانه . وما يبدو منه في ايام السلام بشكل معتدل ، منبئا عن استعداد له ، بصورة تختلف انتظاما ، او موازنا في قوى الطبيعة ، فانه ينتشر في ايام الحرب على شكل حركات مفاجئة وانقطاع واختلال توازن في الطاقات المستعملة لغير اهدافها الاصلية ، بحيث لا بد ان يعود التوازن المختل بقليل او كثير من الطاقات المستعادة .

فمن الضروري اذن حدوث اضطراب كلي في القيم في سبيل اعادة التوازن في نظام جديد هو نتيجة المنازعات التي تؤدي الى نوع من التركيب الجديد للاوضاع التي لعبت دور الضحية ظاهريا .

ان هذا الزوج روسيا ـ امريكا سيحقق هذا التركيب التاريخي الذي سينعكس من الان فصاعدا على آسيا الواسعة، التي عليها ان تشخصه . وعلى ذلك فان الوحدة الانسانية دون ان تكون مجرد طوبائية ، لا بد ان تتحقق . ومع هذا فاننا سنحتاج الى اعادة الشباب الى روح الانسانية القلقة المستنفذة . ولكننا سنترك هذه المهمة للاجيال القادمة ، الى اولادنا ، الينا نحن الاحياء الاموات .

وفي الفصل الاتي سنعالج على ضوء النتائج المحصلة، المظاهر العليا للتعسية الانسانية وعلائقها مع الحضارة . (*)

عزمي مورلي

تعريب « الآداب »

(*) فصل من كتاب « الانسان في العالم » المعد للطبع ، وهو باللغة الفرنسية

صدر عن دار الكتاب اللبناني :

تاريخ العلامة ابن خلدون

وقد صدر اخيرا

الجزء العاشر (وهو نهاية المجلد الثاني)

مذيلا باحد عشر مهرسا هي فهارس التاريخ

حقق وقوبل على نسخة باريس الخطية المكتوبة بخط ابن خلدون

ولا تنسوا انه صدر الجزء الخامس وهو نهاية المجلد الاول (المقدمة) وهذا الجزء مذيل بفهارس المقدمة

التي وضعها وقدم لها بكلمة عامة الاستاذ يوسف اسعد داغر

امين دار الكتب اللبنانية سابقا الاختصاصي بفن تنظيم

المكاتب وعلم الببليوغرافيا

وتتضمن هذه الفهارس الى جانب المصادر والمراجع الاجنبية والعربية لدراسة ابن خلدون :

١ ـ فهرس الموضوعات ٢ ـ فهرس اعلام الرجال والنساء ٣ ـ فهرس الشعوب والقبائل والدول والاسر ٤ ـ فهرس البلدان والامكنة الجغرافية ٥ ـ فهرس الكواكب والنجوم والابراج الفلكية ٦ ـ فهرس الحيوان ٧ ـ فهرس النبات ٨ ـ فهرس المعادن والجواهر والحجارة الكريمة ٩ ـ فهرس اسماء الكتب الواردة في المقدمة ١٠ ـ فهرس آي القرآن الكريم والاحاديث النبوية ١١ ـ فهرس المواد .

منشورات دار الكتاب اللبناني

بيروت ص.ب. ٣١٧٦ ـ هاتف ٢٧٩٨٣